

الإشعاع العلمي لابن مالك الأندلسي في بلاد المشرق

بوداعة نجادي

أشراف - أ.د بن داود نصر الدين

جامعة أبوبكر بلقايد - تلمسان

عرفت الأندلس تطور ثقافي لا نظير له في القرن السادس والسابع الهجري أدى هذا التطور إلى بروز العديد من العلماء الأندلسيين ساهموا في نشر العلوم والمعارف خلال القرن الثامن الهجري، ومن هؤلاء العلماء نجد ابن مالك الأندلسي، فمن هو ابن مالك؟ وما هي مكانته العلمية؟ وما إسهاماته العلمية في بلاد المشرق؟

1- مولده ونسبه:

هو محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك، يلقب بجمال الدين، طائي الأصل، من أهل جيان⁽¹⁾، ولد سنة 600 أو 601 هـ⁽²⁾، وقيل سنة 598 هـ⁽³⁾، لقبه الذهبي بالإمام النحوي الأستاذ⁽⁴⁾، ولقبه اليافعي بإمام العربية العلامة⁽⁵⁾ وأما المقرئ بالإمام العلامة الأوحدي⁽⁶⁾

2- نشأته العلمية وشيوخه:

أخذ ابن مالك علومه الأولى بالأندلس ونشأ بها، ويبدو أنه قد حصل علما وافرا وهو بالأندلس قبل ذهابه إلى المشرق، وخاصة أن الأندلس كانت تعيش أزهى عصورها في المجال الثقافي كونها كانت تزخر بقطاع العلماء في كل تصانيف العلوم وهذا ما جعله ينشأ في بيئة علمية أعطت له دفعا قويا في طلب العلم والاستزادة منه، فأخذ بجيان عن أبو المظفر ثابت بن خيار⁽⁷⁾، وأبي رزين بن ثابت اللبلي، وأخذ القراءات عن أبي العباس أحمد بن نوار، ودرس كتاب سيبويه على أبي عبد الله بن مالك المرشاني⁽⁸⁾، وحضر مجلس أبي علي الشلوبين⁽⁹⁾.

وسمع بدمشق من أبي الفضل مكرم بن محمد بن أبي الصقر وأبي صادق الحسن بن صباح وأبي الحسن علي بن محمد السخاوي⁽¹⁰⁾ الذي أخذ عنه

العربية والقراءات ومحمد بن أبي الفضل المرسى⁽¹¹⁾، وأما بحلب فلازم حلقة ابن يعيش الحلبي ثم جالس تلميذه ابن عمران⁽¹²⁾.

3- مكانة العلمية:

وصفه الذهبي: "إمام زمانه في العربية"⁽¹³⁾، وذكر اليافعي بأنه: "ترجمان الأدب، وحجة لسان العرب...صاحب التصانيف، وواحد الزمان في علم اللسان" وقال عنه السيوطي أنه: "إمام النحاة وحافظ اللغة"⁽¹⁴⁾، ونعته ابن العماد بأنه: "العلامة حجة العرب"⁽¹⁵⁾، كان مالكي المذهب قبل رحلته إلى المشرق ولما أقام بالمشرق صار شافعي المذهب.⁽¹⁶⁾

وقد عرف بمتانة الدين، وصدق اللهجة، وكثرة النوافل، وحسن السمات، وطيبة القلب، ورجاحة العقل، ومظهر الوقار.⁽¹⁷⁾

بلغ ابن مالك مرتبة علمية عالية، وذلك لغزارة علمه وتفننه في عدة علوم وخاصة اللسانية منها، فكان علامة زمانه وشيخ أوانه، متمكنا في القراءات والنحو، بارعا في الشعر، وقد "صرف همته إلى إتقان لسان العرب، حتى بلغ فيه الغاية، وحاز قصب السبق، وأربى على المتقدمين، وكان إماما في القراءات وعلما، وأما اللغة فكان إليه المنتهى في الإكثار من نقل غريبها، والاطلاع على وحشها، أما النحو والتصريف فكان فيهما بحرا لا يجارى، حبرا لا يبارى، وأما أشعار العرب التي يستشهد بها على اللغة والنحو فكانت الأئمة الأعلام يتحIRON فيه، ويتعجبون من أين يأتي بها وكان نظم الشعر سهلا عليه: رجزه وطويله وبسيطه وغير ذلك."⁽¹⁸⁾

وقال عنه ابن الجزري: "وكان ذهنه من أصح الأذهان مع ملازمته العمل والنظر والكتابة والتأليف وبدون ذلك يصير أستاذ أهل زمانه وإمام أوانه"⁽¹⁹⁾، وقال عنه الشيخ ركن الدين بن القويح أن: "ابن مالك ما خلى للنحو حرمة."⁽²⁰⁾

وكان له دراية واسعة بالحديث، فكان يستشهد به في غياب الشاهد من القرآن⁽²¹⁾، وعرف بكثرة المطالعة، وسرعة المراجعة، مستغلا وقته إما في الصلاة أو التلاوة أو التأليف أو القراءة.⁽²²⁾

4- تلاميذته:

أخذ عنه الكثير من طلبة العلم والأئمة⁽²³⁾، وعلى رأسهم الشيخ النووي، الذي نقل عنه في شرح مسلم أشياء⁽²⁴⁾، ويكفيه شرفاً أن يأخذ عنه هذا العالم صاحب كتاب رياض الصالحين، وعلم الدين سليمان بن أبي حرب الفارقي، وشمس الدين بن أبي الفتح البعلبي، وزين الدين أبو بكر المزي⁽²⁵⁾، وروى عنه ابنه بدر الدين، وبدر الدين بن جماعة⁽²⁶⁾، والعلاء بن العطار⁽²⁷⁾، أبو محمد عبد الله بن أحمد بن تمام⁽²⁸⁾ الذي أخذ عنه النحوي⁽²⁹⁾، وأبو عبد الله الصيرفي، وشمس الدين بن جعوان، وأبو الحسن اليونيني، وشهاب الدين محمود، وشهاب الدين بن غانم، وناصر الدين بن شافع⁽³⁰⁾، وغيرهم ممن لا يحصون عدداً.

5- انتاجه الفكري:

لقد تصدر ابن مالك إلقاء العربية بحلب⁽³¹⁾، وتصدر كذلك بحماة زمنا⁽³²⁾ ودرس بالتربة العادلية وبالجامع المعمور بدمشق وتخرج عليه الكثير من الطلبة⁽³³⁾، ألف كتباً ذاع صيتها⁽³⁴⁾، واحتوت على النوادر والعجائب⁽³⁵⁾ و"سارت بتصنيفه الركبان، وخضع لها العلماء الأعيان"⁽³⁶⁾.

وذكر تاج الدين مؤلفات ابن مالك في أبيات شعرية وقوله:

بألفية⁽³⁷⁾

تسمى الخلاصة قد حوت	خلاصة علم النحو والصرف مكتملا
وكافية مشروحة أصبحت تقي	لعمري بالعلمين فيها تسهلا
ومختصر سماء عمدة لا قتل	يضم أصول النحو لا غير مجملا
وبين معناه بشرح منقح	أفاد به ما كان لولاه مهمل
وأخر سماء بإكمال عمدة	فزاد عليها في البحوث وعللا
وصنف للإكمال شرحا مبينا	معانيه حتى غدت رية أنجلا
ولا سيما التسهيل لو تم شرحه	لكان كبحر ماج عذبا وسلسلا
ونظم في الأفعال أيضا قصيدة	فسهل منها كل وغر وذللا
وأرجوزة تحوي المثل بينا	مريعة الصراع غراء تجتلى
وصنف في المقصور أيضا قصيدة	وضمنها الممدود أيضا فكملا
وأتبعها شرحا لها متضمنا	بيان معانيها بها متكفلا
وأعرب توضيحا أحاديث ضمننت	صحيح البخاري الإمام وسهلا

وفي الضاد والظا قد أتى بقصيدة
وبين في شرحهما كل ما غدا على
ونظم في الذي يهمنونه وما
وجاء بنظم للمفصل بارع رفيع
وعرف بالتعريف في الصرف أنه
وفي شرح ذا التعريف فصل كل
وصنف فيما جا بأفعل مع فعل
وألف في الإبدال مختصرا له
ونظم في علم القراءات موجزا
وأرجوزة في الظاء والضاد قد
وآخرلم أدراسمه غير أن على
فجملتها عشرون تتلو ثمانيا
فدونكها نسحا وحفظا لتتبلا⁽³⁸⁾

فمن مؤلفاته: "الكافية الشافية" وتحوي ثلاثة آلاف بيت، و"شرح الكافية الشافية"، والألفية في النحو سماها "الخلاصة" وهي مختصر الشافية، و"العمدة" و"إكمال العمدة" و"شرح إكمال العمدة" و"التسهيل" و"شرح التسهيل" و"قصيدة في الأفعال" و"أرجوزة في المثلث" و"قصيدة في المقصورة والممدود" و"شرح قصيدة في المقصور والممدود" و"إعراب بعض أحاديث صحيح البخاري" و"قصيدة في الضاد والظاء" و"قصيدة في ما هو مهموز وغير مهموز" و"التعريف في الصرف" و"شرح التعريف في الصرف" و"فيما جاء أفعل وفعل" و"مختصر في الإبدال" و"القصيدة المالكية في علم القراءات" و"نظم الفوائد" و"فتاوى في العربية" و"الفوائد في النحو" و"شرح الجزولية" و"سبك المنظوم فك المختوم" و"المقدمة الأسدية" و"المقاصد" و"تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد" (39).

وقد مدح العلماء مؤلفاته وخاصة الألفية، فقال عنها ابن الوردي: "وهي كما قيل غزيرة المسائل، ولكنها على الناظر بعيدة الوسائل، وهي مع ذلك كثيرة الإفادة، موسومة بالإجادة، وليست لمن في هذا الفن في درجة ابتدائية، بل للمتوسط يترقى بها درجة انتهائه" (40)، وقيل عن الألفية:

ألفية ابن مالك مشرقة المسالك
وكم بها من مشعل علا غلى الأرائك⁽⁴¹⁾

وأثنى عليها ابن الوردي برد على المعيين عليها قائلا:

يا عائباً ألفية ابن مالك وغائباً عن حفظها وفهمها
وأما تراها قد حوت فضائلا كثيرة فلا تجر في ظلمها
وأزجر لمن جادل من يحفظها برابع وخامس من اسمها⁽⁴²⁾

وقال يحيى العجيسي عن كتابه التسهيل أنه: " لا يكون تحت السماء أنجي ممن عرف ما في تسهيله وقرنه في بحره بمنصف سيويه فما ينبغي له أن يغمضه، ولا أن يحط عليه، ولا أن يقع فيما وقع فيه، فإنه مما يجري على أمثاله الغبي والنبيه، والحليم والسفيه، وما هذا جزاء السلف من الحلف، والجيد من الحشف."⁽⁴³⁾، وقيل عن "تسهيل الفوائد في النحو" أنه: " لم يسبق إلى مثله."⁽⁴⁴⁾

ومدحه سعد الدين ابن عربي وأثنى على كتابه "تسهيل الفوائد" حيث قال:

إن الإمام جمال الدين جملة رب العلى ولنشر العلم أهله
أملى كتابا له يسمى الفوائد لم يزل مفيدا لذي لب تأمله
فكل مسألة في النحو يجمعها إن الفوائد جمع لا نظير له⁽⁴⁵⁾

وقال السيوطي عن بعض مؤلفاته:

وأملى كتابا بالفوائد نعمته وآخر نظما للفوائد والعلا
وصنف شرحا للجزولية التي غدا نظمها كالصخر حتى تسهلا
وسبكا لمنظوم، وفكا لمختم على هيئة التوضيح فاضمم لما خلا
وقيل وشرحا للخلاصة فاستمع وفي النفس من تصحيح ذا القيل ما غلا⁽⁴⁶⁾

ومن شعره قوله:

إذا رمدت عيني تداوئت منكم بنظرة حسن أو بسمع كلام
فإن لم أجد ماء تيممت باسمكم وصليت فرضي والديار أمامي
وأخلصت تكبيرتي عن الغير معرضا وقابلت أعلام السوى بسلام⁽⁴⁷⁾

ونظم قصيدة لامية ومنها قوله:

تثليث با إصبع مع شكل همزته بغير قيء مع الأصبوع قد نقلا
وأعط أنملة ما نال الإصبع إلا المد فالمد للبا وحدها بذلا
أرز أرز أرز صح مع أرز والرز والرنز قل ما شئت لا عدلا

لندن بتثليث دالٍ لدنٍ لدنٍ ولدنٍ ولدنٍ أوليتٍ فعلا
 فأف ثلث ونونٍ إن أردت وأف
 حيهلٍ حيهلٍ احفظ ثم حيهلا
 أونونٍ أو حيهلٍ قل ثم حي علا⁽⁴⁸⁾
 وقال علي بن المنصور الهمداني: أنشدنا الشيخ جمال الدين ابن مالك
 لنفسه قائلا:

إل ابن الخير عن ضررا خشيتا
 وهذا مذهب وعمر مداه
 فحسن الحزم رأيا إن دهيتا
 موصل غرة قد حان صيتا
 إذا الملهوف ذا صدق عطاء
 تمل حسن المحامد ما حيينا⁽⁴⁹⁾

ومن أقواله أنه قال: " أليين للشيخ المجد الفقه كما أليين لداود الحديد"⁽⁵⁰⁾
 وكانت وفاته بدمشق في ثاني عشر شعبان سنة 672هـ⁽⁵¹⁾ عن عمر يناهز
 وسبعين سنة ونيف⁽⁵²⁾، ورثاه شرف الدين الحصني مشيدا بعلمه ومنها بقوله:

يا شتات الأسماء والأفعال
 وانحراف الحروف من بعد ضبط
 مصدرها كان للعلوم بإذن الله
 يا لسان الأعراب يا جامع
 يا فريد الزمان في النظم والنثر
 كم علوما بثثها في أناس
 بعد موت ابن مالك المفضل
 منه في الانفصال والاتصال
 من غير شبهة ومحال
 الإعراب يا مفهما لكل مقال
 وفي نقل مسندات العوالي
 علموا ما بثثت عند الزوال⁽⁵³⁾

ورثاه ابن النحاس قائلا:

قل لابن مالك ان جرت بك أدمعي
 فلقد جرح القلب حين نعت لي
 حمراء يحكيها النجيع القاني
 فتدفقت بدمائه أجفاني
 لكن يهون ما أجن من الأسى
 علمي بنقله إلى رضوان⁽⁵⁴⁾

وأخيرا نقول بأن ابن مالك كان له فضل كبير على أهل المشرق في نشر العلم
 في هذه المنطقة من خلال التدريس والتصنيف، فقد تخرج على يده الكثير من
 التلاميذ الذين أصبحوا علماء في نهاية القرن الثامن الهجري وبداية القرن التاسع
 الهجري، وقد ترك لنا مؤلفات مفيدة ونبيلة لا زالت تشهد له بتفوقه وبراعته
 العلمية وخاصة في علم النحو.

الهوامش:

- ¹ - جيان: مدينة بالأندلس بينها وبين قرطبة سبعة عشر فرسخا ينظر إلى ياقوت الحموي: معجم البلدان، دارصادر بيروت، د ط، د ت، ج 2، ص 195، وبينها وبين بياسة ستون ميلا، تقع في سفح جبل مرتع جدا، ذات أراضي خصبة، شهيرة بإنتاج اللحوم والعسل وتربية دود الحرير، وبها مزارع الحبوب من قمح وشعير وغيره، وبها مسجد جامع، وتضم ثلاثة آلاف قرية، ينظر إلى الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط 1، 1975، ص 183.
- ² - المقرئ: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دارصادر، دط، 1988م، ج 2، ص 222، السيوطي: بغية الوعاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي وشركاه، ط 1، 1865، ج 1، ص 130.
- ³ - المقرئ: المصدر نفسه، ج 2، ص 228.
- ⁴ - ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، تحقيق ج. برجستراسر، ط 1، 2006م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج 2، ص 159.
- ⁵ - اليافعي: مرآة الزمان وعبرة اليقضان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1997م، ج 4، ص 131.
- ⁶ - المقرئ: المصدر نفسه، ج 2، ص 222.
- ⁷ - ثابت بن خيار: هو أبو المظفر ثابت بن محمد بن يوسف بن الخيار الكلاعي، من أهل جيان، وأصله من لبلة، توفي سنة 628هـ، ينظر إلى المقرئ: المصدر نفسه، ج 2، ص 231.
- ⁸ - المقرئ: المصدر نفسه، ج 2، ص 222، 223.
- ⁹ - أبو علي الشلوبين: هو عمر بن محمد عمر بن عبد الله الأزدي، من أهل إشبيلية، ولد سنة 562هـ، برع في القراءات واللغة والنحو، وتوفي سنة 645هـ، ينظر إلى ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة لكتاب الموصول والصلة، من تحقيق إحسان عباس ومحمد بن شريفة وبشار عوار معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط 1، 2012، م 3، ص 384-387.
- ¹⁰ - السخاوي: هو علي بن محمد بن عبد الصمد بن عطاس الهمداني، من أهل مصر، سكن دمشق، ولد سنة 558 أو 559هـ، كان فقيها مفتيا، شافعي المذهب، عارفا بالعربية والقراءات والتفسير، صنف ودرس وأخذ عنه الناس، وتوفي سنة 643هـ، ينظر إلى الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق بشار عواد معروف، دط، دت، مؤسسة الرسالة ج 23، ص 122-124.
- ¹¹ - ابن الجزري: المصدر نفسه، ج 2، ص 159.
- ¹² - المقرئ: نفح الطيب، ج 2، ص 223.
- ¹³ - ابن الجزري: المصدر نفسه، ج 2، ص 159.
- ¹⁴ - السيوطي: المصدر نفسه، ج 1، ص 130.

- ¹⁵ - ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1، 1986م، ج7، ص590.
- ¹⁶ - المقرئ: المصدر نفسه، ج2، ص222، ابن العماد: المصدر نفسه، ج7، ص590.
- ¹⁷ - الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط2، 1990م، ج50، ص110، 109، السيوطي: المصدر نفسه، ج1، ص130.
- ¹⁸ - الذهبي: تاريخ الإسلام، ج50، ص110، 109، السيوطي: المصدر السابق، ج2، ص130.
- ¹⁹ - ابن الجزري: المصدر نفسه، ج2، ص160.
- ²⁰ - الصديقي: الوافي بالوفيلت، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2000م، ج3، ص288، أحمد بن مصطفى: مفتاح السعادة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1985م، ج1، ص133.
- ²¹ - السيوطي: المصدر نفسه، ج1، ص134، أحمد بن مصطفى: المرجع نفسه، ص133.
- ²² - المقرئ: المصدر نفسه، ج2، ص229.
- ²³ - ابن الجزري: المصدر نفسه، ج2، ص160.
- ²⁴ - ابن العماد: المصدر نفسه، ج7، ص591.
- ²⁵ - المقرئ: المصدر نفسه، ج2، ص229.
- ²⁶ - بدر الدين بن جماعة: هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة قاضي القضاة، شافعي المذهب، ولد بحماة سنة 639هـ، برز في علم الحديث والفقه والأصول والتفسير، وكان خطيباً ومدرسا ومفتياً، ولي خطابة القدس ثم قضاء مصر ثم قضاء الشام وبعدها خطابة الجامع الأموي مع القضاء، وفي آخر حياته ولي قضاء مصر، وله تصانيف في الحديث والأحكام وتوفي سنة 733هـ، ينظر إلى الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، دت، ج3، ص297، 297.
- ²⁷ - السيوطي: المصدر نفسه، ج1، ص130.
- ²⁸ - ابن تمام: أبو محمد عبد الله بن أحمد بن تمام، ولد سنة 635هـ، كان أديباً بارعاً وشاعراً مجيداً، حنبل المذهب، وتوفي سنة 718هـ، ينظر إلى ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، جيزة، ط1، 1997م، ج18، ص184.
- ²⁹ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج18، ص184.
- ³⁰ - الصديقي: المصدر نفسه، ج3، ص287، 288، المقرئ: المصدر نفسه، ج2، ص225.
- ³¹ - المقرئ: المصدر نفسه، ج2، ص130.
- ³² - المقرئ: المصدر نفسه، ج2، ص228.
- ³³ - الكتبي: المصدر نفسه، ج3، ص408، السيوطي: المصدر نفسه، ج1، ص130.
- ³⁴ - السيوطي: المصدر نفسه، ج1، ص130.

- ³⁵- المقرئ: المصدر نفسه، ج 2، ص 230.
- ³⁶- المقرئ: المصدر نفسه، ج 2، ص 228.
- ³⁷- هذه الألفية شرحها العديد من النحويين بعد وفاة ابن مالك، ينظر إلى: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج 1، ص 119، 120.
- ³⁸- السيوطي: المصدر نفسه، ج 1، ص 131، 132.
- ³⁹- المقرئ: المصدر نفسه، ج 2، ص 224، 225، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج 50، ص 110، الصديقي: المصدر نفسه، ج 3، ص 286، عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1993م، ج 3، ص 450، أحمد مصطفى: المرجع نفسه، ص 131، 132.
- ⁴⁰- المقرئ: المصدر نفسه، ج 2، ص 232.
- ⁴¹- المقرئ: نفح الطيب، ج 2، ص 231.
- ⁴²- المقرئ: نفح الطيب، ج 2، ص 231.
- ⁴³- المقرئ: نفح الطيب، ج 2، ص 230.
- ⁴⁴- ابن الجزري: غاية النهاية، ج 2، ص 159.
- ⁴⁵- الصديقي: الوافي، ج 3، ص 286، الكتبي: المصدر السابق، ج 3، ص 408، المقرئ: المصدر السابق، ج 2، ص 224.
- ⁴⁶- السيوطي: المصدر السابق، ج 1، ص 133.
- ⁴⁷- المقرئ: نفح الطيب، ج 2، ص 226.
- ⁴⁸- الصديقي: الوافي، ج 3، ص 287، السيوطي: المصدر السابق، ج 1، ص 136.
- ⁴⁹- الصديقي: الوافي، ج 3، ص 287، السيوطي: المصدر السابق، ج 1، ص 135.
- ⁵⁰- الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 23، ص 292.
- ⁵¹- السيوطي: المصدر السابق، ج 1، ص 134، أحمد مصطفى: المرجع نفسه، ج 1، ص 133.
- ⁵²- الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج 3، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ص 1491.
- ⁵³- الصديقي: الوافي، ج 3، ص 288، الكتبي: المصدر السابق، ج 3، ص 408.
- ⁵⁴- السيوطي: المصدر السابق، ج 1، ص 137.